# شَرْحُ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ

## الدرس السابع

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ أما بعد ...

معنا اليوم الدرس السابع من دروس شرح العقيدة الطحاوية.

وقفنا عند قول المؤلف رحمه الله-: **(لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ، وَمَعْنَى الْخَالِقِ ولا مَخْلوقَ، وَكَما أَنَّهُ مُحْيِي المَوْتَى بَعْدَما أَحْيَا، اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ؛ كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إليه فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصيرُ} [الشورى: ١١])**

قوله: **(لهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ وَمَعْنَى الْخَالِقِ ولا مخلوق)** هذه الجملة معناها نفس معنى الجمل التي تقدمت، وهي مرتبطة بالمبحث السابق؛ ولقد أشبعنا القول فيه.

**(له)** أي: لله تبارك وتعالى معنى الربوبية.

**(الربُّ)** معناه المالك والمتصرف والمُصلح والسيد، والله سبحانه وتعالى مُتَّصِفٌ بهذه الصفات، وهي لازمة لذاته، يوصف بالربوبية بلا بداية ولا نهاية.

**(المربوب)** هو المخلوق؛ وهو الذي يتصرف الله سبحانه وتعالى به.

فقوله: **(لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ)** أي: أن الله سبحانه وتعالى خالق قبل أن يُوجد المخلوق.

قوله: (**وَمَعْنَى الْخَالِقِ ولا مخلوق**) الخلق أخص من الربوبية؛ فمن ضمن معاني الربوبية: الخلق، الربوبية تشمل: الخلق والتدبير والرزق وما شابه، فالله سبحانه وتعالى متصف بهذه الصفات من القدم قبل أن يوجد المَخلوقون؛ هذا معنى كلام المؤلف، وكما ذكرنا هي عائدة لما تقدم؛ فشرحها وبيان معناها تقدم في الجمل الماضية.

قوله: (**وكما أنه محيي الموتى بعدما أَحْيَا اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ؛ كَذَلِكَ استحق اسم الخالق قبل إنشائهم؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) يردُّ بهذا على الذين يقولون: إن الله تبارك وتعالى ما كان قادراً على الخلق، أو ما كان خالقاً ثم بعد ذلك حصلت له صفة الخلق؛ هذا قول بعض المتكلمين؛ وقد تقدَّم بُطلانه.

يريد هنا: كما أن الله سبحانه وتعالى استحق اسم محيي الموتى قبل إحياء الموتى- ما أحيا أحداً من الموتى؛ ومع ذلك يُقال له مُحيي الموتى؛ إذن فقد تَسمّى بهذا الاسم واتصف بهذه الصفة قبل فعل هذا الأمر-، فكما أنه استحق هذا اسم محيي الموتى قبل إحياء الموتى؛ قال: (**كَذَلِكَ استحق اسم الخالق قبل إنشائهم**) أي: قبل إنشاء الخلق، إذن هو يُسمى بهذا الاسم.

وهذا رد على المعتزلة الذين قالوا بأنه لا يُسمى الخالق إلا لمّا خلق الخلق؛ خلق لنفسه أسماء ومن هذه الأسماء الخالق، ولا يَتَّصِفُ بصفة الخلق إلا عند إيجاد الخلق، هذا رد على المُتكلمين، فهو الآن يُلزمهم؛ كما أنه تبارك وتعالى يسمى من الأزل- من القدم-: محيي الموتى قبل إحيائه للموتى؛ كذلك يسمى من الأزل خالقاً قبل أن يَخلُق؛ هذا المعنى الذي يريده؛ فقال: ليس بعد الخلق استفاد اسم الخالق.

فمن هنا قال بعض أهل العلم: بأن المؤلف يذهب إلى أن جنس المخلوقات لها بداية، ويمنع تسلسل المخلوقات في الماضي، لكن الظاهر بأنه لا يقول بالامتناع الذي يقوله المتكلمون- والله أعلم- والمُنْكَر هنا.

على كلٍ؛ هذا كله راجع إلى المبحث الذي تقدم، وقد أشبعنا القول فيه والحمد لله.

وقوله: (**ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شيء إليه فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ**) هذا بيان للعلّة، للسبب، لماذا هو لم يَزَل خالقًا مُصَوِّرًا ...إلخ؟

قال: ذلك لأنه لم يزل على كل شيء قدير، قال الله سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:٢٨٤]، وقال: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:٢٠]، وقال: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [النحل:٧٠]، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف:٤٥]؛ إلى آخر ذلك من الآيات التي تدل على هذا.

فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير؛ فيخلُقُ متى شاء، ويُميتُ متى شاء، لم يأتِ زمن من الأزمان لم يكن قادراً على ذلك سبحانه وتعالى؛ فلا يخرجُ شيء عن قدرته؛ فكل الموجودات وُجِدَت بقدرته ومشيئته سبحانه.

قال: (**وَكُلُّ شيء إليه فَقِيرٌ**) قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر:١٥] فالله سبحانه وتعالى هو الغني بذاته تبارك وتعالى، والناس والخلق جميعًا فقراء إلى الله سبحانه وتعالى.

قال: (**وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ**) كل شيء عليه هيّن وهو قادر عليه- على كل شيء-؛ وهو يسير عليه أيضاً؛ فليس هناك ما يَصعُبُ عليه تبارك وتعالى، أو يَعْجَزُ عنه؛ {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ

مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [فاطر:٤٤]، {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [العنكبوت:١٩].

**(لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ)** لكمال غناه تبارك وتعالى؛ فهو تبارك وتعالى غني عن كل ما سواه.

ذكرنا أن مسائل القدر وما يتعلق بها ستأتي إن شاء الله مع بعضها؛ لأن المؤلف رحمه الله فرَّقها، وذكر الشُّراح هنا عند قول المؤلف: (ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)؛ ذكروا بعض مسائل القدر؛ مباحث القدر؛ نؤجل هذا كله إلى الكلام في مسألة القدر.

قوله: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصير} [الشورى: ١١]** هذه الآية فيها الاعتدال؛ تدل على منهج أهل السنة والجماعة وبها يستدلون؛ فهم وسط بين فِرَق الضلال؛ بين الإفراط والتفريط.

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: هذا رد على أهل التشبيه والتكييف، الذين يُشبهون الله سبحانه وتعالى بخلقه، ويقولون: له يد كأيدينا، وله سَمْعٌ كسمعنا، وهذا كفر؛ تشبيه الله سبحانه وتعالى بخلقه كفر.

والتشبيه كما قال السلف- وكما تقدَّم معنا-: أن تقول: يد كيد؛ تستعمل (كاف التشبيه)، أو تستعمل لفظ (مثل) الذي يدل على التشبيه في لغة العرب؛ فتقول: يد مثل يد، هكذا قال السلف رضي الله عنهم؛ وهذا معنى أن تكون مشبهاً، أما أن تُثبت لله تبارك وتعالى ما أثبت لنفسه من الأسماء والصفات؛ فهذا لا يدخل في التشبيه؛ لأن المطلوب منك أن تؤمن بهذه الآية وبكل ما جاء في الكتاب والسنة من أسماء وصفات، وأن تؤمن بهذه الآية كاملة تامة بجزئيها، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وكذلك: {وَهُوَ السَّمِيعُ البصير} ولا تكون مؤمناً بها إيماناً تامَّاً

إلا أن تنفي التشبيه الذي ذكرناه عن الله تبارك وتعالى، وأن تُثبت له ما أثبت لنفسه من أسماء وصفات كما قال سبحانه {وَهُوَ السَّمِيعُ البصير}؛ وبهذا تكون قد آمنت بها.

أما أن تؤمن بشطرها الأول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، وتكفر بالثاني: {وَهُوَ السَّمِيعُ البصير} كما فعلت المُعطِّلة؛ فهذا ليس الإيمان المطلوب منك شرعاً، أو تؤمن بشطرها الثاني: {وَهُوَ السَّمِيعُ البصير}، وتكفر بشطرها الأول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} كما فعلت المُشبهة؛ فما هكذا أمرك الله سبحانه وتعالى ولا هذا ما أراد منك؛ إنما أراد منك أن تؤمن بهذا وهذا، وأراد منك أن تُثبت له ما أثبت لنفسه من أسماء وصفات كما يليق بجلاله وعظمته تبارك وتعالى، وأن تنفي التمثيل؛ هذا ما أُمرنا به.

فهذه الآية دلت على منهج الحق؛ وهي أصل عند أهل السنة والجماعة.

وهنا مسألة تُطرح: (الكاف) في هذه الآية- {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} - ماذا يُقصد منها؟

لأن أهل العلم- غير المشبهة طبعاً- متفقون على المعنى المراد بهذا اللفظ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}؛ أن المراد به: نفي المثل عن الله تبارك وتعالى، إذا كان المراد هو نفي المثل عن الله؛ فهذه الآية لو حملتها هكذا وفهمتها بناء على ما يظهر لك؛ تقول: فيها إثبات المثل لله، كيف ذلك؟

قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} يعني كأنه يوجد له مثل وهذا المثل ليس له شبيه؛ وهذا المعنى باطل ولا يُراد من الآية.

إذن ما المُراد منها؟

اختلف العلماء في المراد من (الكاف) هنا، توجيهات كثيرة كلها تدور على أمر واحد وهو الوصول إلى المعنى المراد حقيقة من الآية؛ وهو نفي التمثيل عن الله تبارك وتعالى.

بعضهم قال: الكاف هذه زائدة، لكن ردَّ الآخرون: بأنه لا يوجد زائد في القرآن؛ فكل حرف له معنى.

وأصَح ما قيل في هذا: أن هذه الكاف هي تأكيد لنفي المثل، كيف؟

قالوا: كأن الله سبحانه وتعالى قال: ليس كهو شيء، وليس مثله شيء؛ هذا معنى التأكيد؛ وهذا المعنى أصح ما قيل في ذلك. والله أعلم.

قال المؤلف بعد ذلك: **(خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ، وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَاراً، وَضَرَبَ لَهُمْ آجالاً)**

قوله: (**خلق الخلق بعلمِهِ)** خلق؛ أي: أوجد وأنشأ وأبدع (الخَلْقَ بعلمِهِ) أي: خلقهم عالمًا بهم، هكذا قال أهل العلم في تفسيرها، قال الله تبارك وتعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤]، وخلقه تبارك وتعالى دليل على علمه وقدرته، الخلق يستلزم العلم؛ فلا يكون خلق إلا بعلم؛ فالخلق يستلزم العلم ويستلزم القدرة.

والأدلة على إثبات العلم لله تبارك وتعالى في الكتاب والسنة كثيرة جداً؛ {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١١٩]، {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ} [البقرة:٢٣٥]، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤]؛ آيات كثيرة جداً، الأمر- والحمد لله- معلوم من الدين بالضرورة؛ أن الله سبحانه وتعالى عالم ويخلق بعلم ويعلم دقائق الأشياء.

العلم من صفات الله، ومن أهل البدع من ينكر هذا؛ فالجهمية ينفون عن الله سبحانه وتعالى أسماءه وصفاته؛ يقولون هذه الأسماء إضافتها لله سبحانه وتعالى إضافة مجاز، وهي في الحقيقة أسماء لبعض مخلوقاته، وأما الصفات فينفيها الجهمية وينفيها المعتزلة، فالمعتزلة يقولون:

هو عليم ولكنه بلا علم، فالعلم ليس صفة قائمة به، وقدير بلا قدرة، وسميع بلا سمع، وبصير بلا بصر- نسأل الله العافية-؛ هذا معنى نفيهم للصفات.

وأما أهل السنة والجماعة فيثبتون الأسماء والصفات لله سبحانه وتعالى، وصفة العلم من ذلك؛ وكما ذكرنا هذه الصفة عليها أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، والله سبحانه وتعالى علمه أزلي، لا يوجد شيء لا يعلمه تبارك وتعالى.

قوله: **(وقدر لهم أقداراً)** قال الله تبارك وتعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان:٢]، وقال: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:٤٩]، وجاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال: "قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلق قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وكان عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

قوله (**وضرب لهم آجالًا**) يعني أن الله سبحانه وتعالى قدَّر آجال الخلائق، والأجل هو النهاية؛ نهاية المدة المُقدرة، إذا جاء أجل الشخص- يعني المدة المُقدرة له أن يعيش فيها-، إذا جاء وقت موته؛ انتهى الأمر، الدنيا هذه لها أجل، وأجلها أن تقوم الساعة؛ وقت قيام الساعة هذه نهايتها، ويوجد آجال مختصة بكل فرد، كما جاء في حديث ابن مسعود: "وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كلمات: بِكَتْب رِزْقِهُ وَأَجَلِهُ..." يعني: متى يموت، وكل أمة لها أجل كما قال الله سبحانه وتعالى: {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [يونس:٤٩].

فالآجال والأعمار كلها مُقدرة، وهذا ما دلّت عليه الأدلة؛ الآيات والأحاديث؛ أن الآجال والأعمار كلها مقدرة.

ودلّت النصوص على أن لطول العمر وقِصره أسباباً كونية وشرعية، فمن الأسباب الشرعية: صلة الرحم وبر الوالدين كما جاء في الحديث: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي

أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ"، لكن هل يعني هذا أن الآجال المكتوبة في اللوح المحفوظ عند الله سبحانه وتعالى تتغير؟

لا، فليس المقصود من هذا أنه يكون مكتوباً له في اللوح المحفوظ عمر معين، ثم بعد ذلك إذا وَصَلَ رحمه؛ زاد هذا العمر؛ لا، لكن هو مكتوب عند الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ بأنه سيصل رحمه وبأن عمره سيكون كذا وكذا؛ فهذا سَبَقَ في علم الله أنه سيصل رحمه، ومدَّ الله سبحانه وتعالى في عمره جزاءً له؛ وهذا كله في اللوح المحفوظ.

وكذلك الأمر في الدعاء، الدعاء مؤثر عند أهل السنة والجماعة؛ خلافاً لبعض أهل الباطل الذين قالوا بأن الدعاء لا يؤثر؛ لأن الأسباب عندهم غير مؤثرة؛ وهذه من مسائل القدر، وستأتي إن شاء الله.

الله سبحانه وتعالى يجعل الدعاء سبباً في أمور يريدها تبارك وتعالى وكتبها وقدَّرها عنده في اللوح المحفوظ؛ فهو مكتوب عند الله سبحانه وتعالى أن فلاناً يدعو ويستجيب الله سبحانه وتعالى له ويقع الأمر، الدعاء سبب والأسباب مؤثرة، وكل شيء بقدر الله سبحانه وتعالى، والمسألة متعلقة بمسألة القدر، وستأتي إن شاء الله.

ثم قال المؤلف: **(وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ)**

قوله: **(وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ)** هذا تأكيد للعلم الذي تقدَّم وأن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، قبل أن يَخلُقَهُم؛ يعلم من سيخلق؟ وكيف سيخلقهم؟ وماذا سيفعلون؛ كل هذا معلوم عنده تبارك وتعالى؛ فعلمه تبارك وتعالى تام قديم أزلي بكل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء أبداً.

يقول أهل العلم هنا: (فإنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون) كما قال تبارك وتعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام:٢٨]؛ يعلم الله أنهم لو ردوا إلى الحياة الدنيا؛ فسيعملون نفس ما كانوا يعملون من قبل مما نهوا عنه؛ مع علمه أنهم لا يُرَدُّون.

وقوله: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُم} [الأنفال:٢٣]، قال أهل العلم: في ذلك رد على الرافضة والقدرية الذين يقولون: لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده؛ وهذه المسألة أيضاً من مسائل القدر وستأتي إن شاء الله.

قال المؤلف: **(وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ)**

هنا ذكر المؤلف مسائل من مسائل القدر، ثم ذكر مسائل الشرع- الأمر والنهي-؛ تنبيهاً على وجوب الإيمان بالشرع مع الإيمان بالقدر، حتى لا تقول: أن الله قدَّر علينا المعاصي، وقدر علينا الطاعات؛ إذن نترك ونمضي في حياتنا، وكل شيء مقدر وينتهي الأمر، لا؛ إنما أمرك الله ونهاك، وأعطاك القدرة على الفعل وعلى الاختيار، وأعطاك مشيئة على هذا الأمر؛ تشاء وتفعل، وتحاسب وتعاقب على أشياء أنت تقدر على فعلها وعلى عدم فعلها؛ فلذلك يحاسبك عليها، والله سبحانه وتعالى خلقك لعبادته، وهداك النجدين؛ طريق الحق وطريق الباطل، وأعطاك القدرة على الاختيار وعلى الفعل، والواجب عليك أن تختار ما فيه خير لك في الدنيا والآخرة وأن تطيع الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لذلك خلقك في الدنيا { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** }[الذاريات :٥٦] لهذا خلقك الله؛ لعبادته، فاشغل نفسك بعبادته، ولا تحتج بالقدر على معاصيك وذنوبك وانحرافك؛ فهذا قد فعلته بمشيئتك، وباختيارك، وبقدرتك؛ لذلك تعاقب عليه، ولا حجة لك فيما قدَّر الله عليك، أنت لا تدري

ما قدره الله عليك، وأنت تعلم أن الله أمرك ونهاك وأنك قادر على أن تعمل بالأمر أو تعمل بالنهي؛ فاختر لنفسك، وكن منصفاً معها.

المهم أن المؤلف أراد أن ينبه على هذا الأمر: أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لعبادته، مع ذكره لمسائل القدر؛ فلا تجعل ما قدر الله سبحانه وتعالى وإيمانك بالقدر حجةً لانحرافك؛ فهذا فهم سقيم، واشغل نفسك بما أمرك الله. والله أعلم.

ونكتفي بهذا القدر والحمد لله.